

### قصة جمل جابر...وقفات تربوية (3-4)

بقلم : عبد الآخر حماد

6- ومن بديع الاستنباط في هذه القصة ما استنبطه السهيلي في الروض الأنف حيث قال : (( ومن لطيف العلم في حديث جابر بعد أن تعلم قطعاً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يفعل شيئاً عبثاً، بل كانت أفعاله مقرونة بالحكمة، ومؤيدة بالعصمة فاشترأه الجمل من جابر ثم أعطاه الثمن وزاده عليه زيادة، ثم رد الجمل عليه وقد كان يمكن أن يعطيه ذلك العطاء دون مساومة في الجمل، ولا اشتراء ولا شرط ولا توصيل بالحكمة في ذلك بديعة جداً، فلتنظر بعين الاعتبار وذلك أنه سأله هل تزوجت ، ثم قال له هلا بكراً ، فذكر له مقتل أبيه وما خلف من البنات وقد كان عليه السلام قد أخبر جابراً بأن الله قد أحيا أباه ورد عليه روحه وقال : (ما تشتهي فأزيدك) ، فأكد عليه السلام هذا الخبر بمثل ما يشبهه فاشترى منه الجمل وهو مطيته كما اشترى الله تعالى من أبيه ومن الشهداء أنفسهم بثمان هو الجنة ، ونفس الإنسان مطيته كما قال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - : ( إن نفسي مطيتي ، ثم زادهم زيادة فقال: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) [ يونس 26 ] ثم رد عليهم أنفسهم التي اشترى منهم فقال: ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً) [ آل عمران : 169 ] الآية ، فأشار عليه السلام باشتراءه الجمل من جابر ، وإعطائه الثمن وزيادته على الثمن، ثم رد الجمل المشتري عليه أشار بذلك كله إلى تأكيد الخبر الذي أخبر به عن فعل الله تعالى بأبيه، فتشاكل الفعل مع الخبر ، كما تراه وحاش لأفعاله أن تخلو من حكمة بل هي كلها ناظرة إلى القرآن ومنتزعة منه صلى الله عليه وسلم )) (31).

قال الحافظ ابن كثير : (( وهذا الذي سلكه السهيلي ها هنا إشارة غريبة ، وتحيل بديع ، والله سبحانه وتعالى أعلم )) (32).

(31) الروض الأنف : ( 3 / 406-407 ) .

(32) البداية والنهاية : ( 89/4 ) .

وقال ابن القيم في معرض كلام له عن الجهاد والاستشهاد : (( تأمل قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه صلى الله عليه وسلم بغيره ، ثم وفاه الثمن وزاده ، ورد عليه البعير ، وكان أبوه قد قتل مع النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره أن الله أحياه ، وكلمه كفاحاً ، وقال يا عبدي تمنّ علي<sup>(33)</sup> ((...<sup>(34)</sup> .

والمقصود بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبر جابراً بما فعله الله تعالى مع أبيه أحب أن يضرب له مثلاً واقعياً محسوساً يقرب له ذلك ، ويزيده تصديقاً ورضاً بما أنعم الله به على أبيه في دار كرامته ، فاشترى منه الجمل على النحو المبين في القصة ، ولا شك أن ضرب المثل من أحسن ما يؤثر في النفوس ويقرب المعاني إليها فأنس النفوس موقوف كما يقول عبد القاهر الجرجاني : (( على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بتصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع ، وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين ))<sup>(35)</sup> .

وإذا كان ضرب المثل له كل هذا التأثير الذي أشار إليه الجرجاني ، فما بالنّا إذا جاء التمثيل بواقعة حية ، وتصرف حقيقي مع نفس الشخص الذي يراد توصيل المعنى إليه؟

**فضل الله أعظم :**

لقد جاء هذا المثل الواقعي كما أسلفنا موضحاً غاية الإيضاح للفكرة المراد توصيلها أو تأكيدها لدى جابر رضي الله عنه ، غير أنه لا بد من الإشارة هنا إلى أن ضرب المثل لا يلزم منه المطابقة من كل وجه بين المشبّه والمشبه به ، ففي الحديث الذي بين

---

(33) أخرجه الترمذي (3010) وابن ماجه (190) (2800) وابن أبي عاصم في كتاب السنة (602) من حديث جابر بن عبد الله ، وقد حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (157) .

(34) زاد المعاد : (74/3) .

(35) أسرار البلاغة في علم البيان ص: 106 .

أيدينا نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشترى من جابر جملًا هو له ،بينما اشترى الله تعالى من عبد الله بن عمرو بن حرام نفساً هو سبحانه خالقها ومالكها،وعليه فإننا نقول إنه مع ظهور كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفضله على جابر ،فإن فضل الله سبحانه وتعالى على عباده أعلى وأعظم (( فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله ،وجمع له بين الثمن والمثمن ،وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد ،وهو سبحانه الذي وفقه له ،وشاءه منه ))(36).

### ثانياً : رجال صدق

1- من أهم ما يلفت النظر في قصة جمل جابر ما ورد في أولها من تسمية الغزوة التي وقعت فيها بذات الرقاع ،فقد كان لهذه التسمية سبب ذكره أبو موسى الأشعري رضي الله عنه حين قال : ( خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ونحن ستة بيننا بعير نعتقه، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق؛ فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا)(37).

وفي هذا بيان فضيلة الصحابة الكرام، وما تكبدوه من المتاعب والمشاق من أجل نشر هذا الدين ،ومع ذلك كان الواحد منهم يكره أن يحدث بهذا الذي قدموه خوفاً من أن يكون ذلك من قبيل الرياء أو تزكية النفس ،كما قال أبو بردة بن أبي موسى بعد أن روى مقالة أبيه السابقة : (فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه).

إن التاريخ الإنساني كله لم يشهد أنصار نبي ،ولا أتباع قائد كانوا كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث صدق الإيمان وقوة العقيدة وعلو الهمة ،مع أنهم كانوا قبل بعثته صلى الله عليه وسلم أقواماً تائهين في ضلالات الشرك والوثنية، غاية همهم أن يغير بعضهم على بعض ،ويغي بعضهم على بعض ، لا وزن لهم يؤبه به بين الأمم

(36) زاد المعاد: (74/3-75).

(37) أخرجه البخاري(4128) ومسلم (1816) .

؛ حتى قال يزدجرد قائد الفرس لرسول سعد بن أبي وقاص إليه : (( إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ... )) (38) .

ولكن الذي لم يكن هذا القائد الفارسي راغباً في تصديقه ما ذكره له هؤلاء الرسل من أن هناك متغيراً جديداً طرأ على حياة هؤلاء القوم ، وهو المتمثل في بعثة نبي كريم استطاع بتربيته النبوية أن يعيد صياغة هذه الأمة ، فيخرج من أولئك القوم خير أمة أخرجت للناس ، فانقلبت بهم موازين القوى في عصرهم ، فاستطاعوا في سنوات معدودات أن يزيلوا من الوجود دولة الفرس ، وأن يجيروا دولة الروم على التخلي عن أهم مستعمراتها في بلاد الشرق ، حتى قال بعض الأصوليين : (( لو لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته )) (39) .

وإذا كان بعض أهل العلم المعاصرين قد ذكر أن حضارة الأخلاق بالنسبة للأمم مدتها أربعون سنة ، بمعنى أنه إذا أخذت أمة تستمسك بالأخلاق الكريمة ، فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة ، وأشار إلى أنه لأجل ذلك قضى الله بالتيه أربعين سنة على بني إسرائيل لما ظهر جنبهم وأبوا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ؛ وفي خلال هذه الأربعين من السنين فني الجيل الذي نشأ في ذل الفراعنة واستعبادهم ، وظهر جيل جديد ممن كانوا صغاراً أيام عبودية بني إسرائيل في مصر ، أو ممن ولدوا في البرية في جو الحرية والعزة ، وبهذا الجيل الجديد تمكن بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة بعد عصر موسى عليه السلام (40) .

أقول : إذا كان الأمر كذلك فإن الملاحظ أن هذه النظرية لم تنطبق أبداً على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم لم يحتاجوا ولا حتى إلى نصف المدة التي احتاجها بنو إسرائيل ليتم تغييرهم ، والأهم من ذلك أن التغيير الذي تم في حالة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن تغييراً إحلالياً كذلك الذي حدث في بني إسرائيل ، أي لم يكن بطريقة الانتظار إلى أن ينشأ جيل جديد يحمل صفات وأخلاقاً غير التي كان

(38) البداية والنهاية : (42/7) .

(39) الفروق للقرافي : (305/4) .

(40) انظر : قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص: 227 .

يحملها الجيل الأول، وإنما كان التغيير تغييراً في النفوس ذاتها؛ بحيث إن الشخص الذي كان من قبل تائهاً في ضلال الوثنية، غاية همه معاقرة الخمر، أو الانتصار لأهله وعشيرته بالحق أو بالباطل، هو نفسه الذي صار مستعداً بعد أن مس الإيمان شغاف قلبه أن يبذل نفسه وكل ما يملك في سبيل نصرته هذا الدين والعمل لمرضاة الله عز وجل، فقد (( كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية ... وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد، بقيادته الجديدة ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته ))<sup>(41)</sup>.

وإن في مثل هذا الموقف الذي أشار إليه الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري لتوجيهها وإرشاداً وحفزاً لهم المسلمين نحو خدمة دينهم، والبحث عن ما يمكن عمله لنصرته مهما قلت الإمكانيات وضائق الأحوال .

للحديث بقية بإذن الله

---

(41) معالم في الطريق ص: 19-20.